(المحاضرة الأولى)

I-جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة"

تمهيد:

بالرغم من أنه قد مر عن ما كتبه ابن بطوطة وابن خلدون (1332- 1406م)، من القرن الرابع عشر الميلادي، عن إفريقيا جنوب الصحراء ما يقارب الستة قرون، إلا أنها لا تزال أساسا للدراسات الإفريقية حول السودان الغربي بصفة عامة ومملكة مالي الإسلامية بصفة خاصة، وفي هذا المنوال ننوه إلى أن عبارة " السودان الغربي" لم ترد أصلا في كتاباتهما ولا في كتابات من سبقهما من مؤرخين أو جغرافيين أو رحالة مسلمين، بل وحتى في كتابات الذين جاؤوا بعدهما في القرون الخمسة التالية، وإنما ظهرت خلال القرن التاسع عشر الميلادي عندما اكتشفت منابع نهري النيل والنيجر، وعرف أنهما نهران منفصلان عن بعضهما وليسا نهرا واحدا، فأطلق الأوربيون اسم " السودان الغربي " على منطقة نهري السنغال والنيجر، بينما أطلقوا مصطلح " سوادن وادي النيل " وكذلك " السودان المصري " على المنطقة الواقعة جنوب مصر.

أما بالنسبة للمسلمين مثل ابن خلدون وابن بطوطة وغيرهما ممن كان قبلهم فكلمة "السودان" كانت تعني منطقة أوسع مما هو مسمى حاليا بالسودان الغربي، وكانت إفريقيا السوداء جنوب الصحراء بالنسبة لهم عبارة عن ثلاثة أقسام هي :

1- **قسم بلاد السودان** : وهي المنطقة الممتدة جنوب الصحراء من المحيط الأطلسي في الغرب إلى نهر النيل في الشرق، وقد اعتقدوا أن نهر النيل هو نهر النيجر وأنهما نهرا واحدا ولذلك سموا نهر النيجر بالنيل أو بحر النيل.

2- **القسم الثاني** : هو بلاد الحبشة (القرن الإفريقي: الصومال، إيريثيريا، جيبوتي، أيثيوبيا).

3- **والقسم الثالث** : هو بلاد الزنج.[1]

[1] -أنظر بن فضلان.العمري، مسالك الأبصار ومماليك الأمصار.

ويجب أن ننوه هنا أيضا إلى أنه كانت في القارة الإفريقية بداية القرن الرابع عشر الميلادي، ثلاثة قوى رئيسية، هي " دولة المماليك " في مصر ومركزها القاهرة، و" دولة المرينيين " في المغرب ومركزها فاس، ثم دولة مالي في السودان الغربي ومركزها نيامي، وكانت هذه القوى الثلاثة متصلة فيما بينها اتصالا سياسيا وتجاريا وثقافيا.[2]

ولكن ما الجديد الذي قدمه ابن بطوطة وابن خلدون ولم يذكره أسلافهما وسابقيهما، والجواب على ذلك أن المسلمين كانوا يعتمدون على مصدرين رئيسيين لمعرفة ما يجري خلف الصحراء :

1-الرواية الشفوية : وهذه مصدرها السودانيون أنفسهم والمسلمون المترددون على السودان للتجارة والزيارة، وأحيانا للعمل والاستقرار، وهذه كثيرا ما ينتج عنها معلومات بعيدة عن الصحة والصدق عن أحوال السودان الغربي وشعوبه لأنها لم تكن محكمة بشروط خاصة.[3]

ب-الكتابات التي كتبها كبار المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين الذين اهتموا بالسودان الغربي وتحدثوا عنه في كتاباتهم أمثال علي بن حسن المسعودي (ت. 957م) في كتابه مروج الذهب، وأبو القاسم في حوقل (ت. 977م) : المسالك والمماليك، وأبو عبيد الله البكري (ت. 1094م) : المسالك والمماليك، وأبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي القرشي (ت. 1160م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وياقوت الحموي (ت. 1228م) : معجم البلدان، وأبي سعيد الغرناطي (ت. 1274م) : كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة، وهؤلاء كلهم كانوا قبل ابن خلدون وابن بطوطة.

أما الفينيقيون واليونان ثم الرومان فقد اعتبروا المنطقة الواقعة خلف الصحراء الكبرى أرضا " مجهولة مرعبة "، ولذلك لم يترك لنا مؤرخوهم ما نثق به، بالرغم من أن بعض الكتاب اليونان والرومان كتبوا عن الزنوج القادمين من وراء الصحراء الكبرى منذ القرن الثاني

---

[2] - أنظر ابن فضلان العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ص 4.
[3] - أنظر: ابن خلدون: المقدمة، بيروت، أوالكتاب اللبناني، 1967م، ص 448.

الميلادي، ولكن تلك الكتابات كانت تعتمد على حياة وسلوك أولئك العبيد الزنوج الذين نُقلوا من مواطنهم الأصلية إلى شمال إفريقية ثم أوروبا.[4]

ومهما يكن من أمر فإن المقصود من مصطلح السودان الغربي، هي تلك المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة من المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا والتي ضمت عددا من الوحدات السياسية مثل : جاو، وتكرور في السنغال، وغانة، ومالي.

وقد ارتبطت هذه المنطقة بعلاقات تاريخية وصلات تجارية وثقافية مع بلاد المغرب منذ أمد بعيد أعانت عليها المسالك الصحراوية التي مهدت للسُبُل أمام التجار والفقهاء والدعاة.

<u>شرح المصطلحات الواردة</u> :

1- مدينة جاو: تقع شمال العاصمة باماكو ببلاد مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي، وكان السلطان منسا موسى قد قام ببناء مسجد بها إثر عودته من أداء فريضة الحج عام 1325م، وأشرف على بناء هذا المسجد الكبير المهندس الشاعر القرطبي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي، وكان السلطان منسا موسى تعرف على أبي إسحاق بمكة المكرمة خلال حجه عام 1324م فدعاه إلى بلاده وصحبه معه عند عودته إلى مالي.[5]

---

[4] - Baba Ibrahima kake : Glossaire critique des expressions géographiques concernant le pays des Noirs, Paris, Présence Africaine, 1965, p 10.

[5] - أنظر: عبد الفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، د ت، ص 145؛ عبد الله بازينة؛ إنتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، منشورات جامعة 7 أكتوبر، الإدارة العامة للمكتبات والمطبوعات والنشر، مصراتة، الجماهيرية العظمى، ط 1، 2010 م، ص 146